القسم الثانى

من فنون الشعر العربى

أنواع النسيب والتشبيب

فى شعر العرب [١]

ربما كان من المستحسن أن نميز فى الأسماء والمصطلحات أنواعاً من النسيب تختلف فى طريقتها وأثرها فى النفس وقد لا يوافقنى على هذا التقسيم بعض الأدباء ولكننى أراه مما يمنع الخلط فى الكلام عن الشعر والشعراء وأراه يسهل تذوق طريقة كل منهم وفهم أسلوب فنهِ .

فالنسيب فى الشعر أقسام فمنه ما كان مصدره العشق ومنهُ نسيب الوجدان من غير عشق خاص ومنهُ نسيب الصوفية ونسيب التمثيل أو القصص التمثيلية ومنهُ نسيب المحاكاة والصناعة الزخرفية ومنهُ النسيب المشوب بالمجون وهناك أنواع أخرى بين بين لأنها تجمع بين طريقتين أو أكثر وأبعد أنواع النسيب هى ما بعدت فى هذا الترتيب وأقربها ما اقتربت فيه وقد يجمع الشاعر بين المتقاربين كما قد يخلط الناقد بينهما فى حكمهِ فقد يخلط الناقد بين نسيب العشق ونسيب الوجدان لأن الأول جزء من الثانى وهو وجدان متعلق بإنسان جميل وقد يخلط بين نسيب الوجدان ونسيب التمثيل لأن الشاعر إذا مثَّل العاطفة فى شخصه أو فى شخصٍ فى قصة لا بد أن يكون لهُ من الوجدان الصافى ما يساعد بصيرته الفنية فى إتقان ذلك التمثيل ولكن نسيب الوجدان هو شعر قد لا يراد به تمثيل العاطفة وإنما قد يأتى من الشاعر عفواً كما يصدح الطائر الغريد فهو قد لا يدل على التعلق بإنسان معين وقد لا يدل على تمثيل العاطفة تمثيلاً يأتى بهِ مزاج مؤلف القصص التمثيلية أو مزاج الفنان الممثل . وقد يخلط الناقد بين نسيب الوجدان ونسيب الصوفية لأن نسيب الصوفية يستمد من الوجدان ولكن الحقيقة أن نسيب الصوفية يجمع أخلاطاً كثيرة من الأحاسيس إما فى قصيدة واحدة وإما فى قصائد مختلفة أو شعراء مختلفين فتراه يستمد من إحساس العبادة وقد يكون جلال المعبود فيه غالباً لجمال المحبوب وقد يكون العكس وقد ترى فى بعض غزل الصوفية قدرة الفنان الممثل للعاطفة وقد تراه يستمد من الصناعة الزخرفية وقد تختلط فيه الأفكار وتهوش إذا حاول

---

(١) نشر بمجلة المقتطف ، ابريل سنة ١٩٣٩ م .

الشاعر التوفيق بين أمور الحياة والكون المتناقضة توفيقاً لم ينضجه الفكر المنظم . وقد ترى بعض المجون أو ما يشبهُ المجون فيه من ذكر محاسن أعضاء الجسم والوصال واللذات واللمى والريق والخمر ويؤول كل ذلك تأويلا قدسيًّا والحقيقة المعروفة فى علم النفس أن الشهوة الجنسية الخفية قد تجد لها منفذاً بهذه الوسيلة عن طريق التعبد . وقد يكون الشاعر الصوفى المسكين صادقاً فى تعبده وقد يكون آخر من يفطن إلى حقيقة علم النفس هذه .

وكذلك قد يجتمع شعر المحاكاة والزخارف وشعر المجون من غير أن يخالطهما وجدان أو عبادة صوفية . وقد يخلط الناقد بين نسيب المزاج التمثيلى وبين نسيب المحاكاة والزخارف لأن الشاعر الذى ينظم النوع الثانى يَدَّعى العاطفة أو يدعى وصفها ولكنهُ قد تعوزه بصيرة الفنان النافذة إلى أعماق النفوس كما يعوزه الوجدان الرقيق الصافى الذى يساعد البصيرة النفسية (السيكولوجية) فإذا أعوزه الوجدان العميق الصافى وأعوزتهُ البصيرة السيكولوجية كان نسيبه من نوع شعر المحاكاة والزخارف لا من نوع النسيب التمثيلى الذى نراه فى القصص التمثيلية وفيما ينحو منحاها وفنها من شعر غير القصص التمثيلية وكما نراه فى شعر الشاعر الذى أتيح له مزاج الممثل الذى يمثل العاطفة فتتملكه العاطفة وقت تمثيلها .

وهذه الأقسام التى ميزناها فى شعر النسيب ليست خاصَّة كل منها بعصر ففى الجاهلية وصدر الإسلام نرى نسيب العشق فى شعر العذريين ونرى نسيب الوجدان إذا لم يتعلق الشاعر الناسب بإنسان معين وإنما يفيض بوجدانه المتعلق بالجمال ويصدح بحنينهِ ويغنى بأنغامهِ ونرى نسيباً يقرب من نسيب الصوفية وإن كان سببه أن فرط الحب أكسب الحب شيئاً من أحاسيس العبادة بينما نرى أن العبادة فى شعر الصوفيين كانت وسيلة لإرضاء عاطفة الحب . ونرى فى ذلك العصر أيضاً شعر النسيب التمثيلى الذى يدل على بصيرة فنية بسيكولوجية تنظم شعراً يمثل نسيب العشق أو نسيب الوجدان المحض اللذين لا يهمهما الفن والصنعة ، ونرى أيضاً نسيب المحاكاة التى تفيض فيها العاطفة وقد يجمع الشاعر إلى محاكاة الصنعة وصف اللذات أو المجون فنسيب امرئ القيس نسيب المحاكاة والصنعة . وقد يرق ويلطف ويدل على وجدان وعلى تعلق بإنسان جميل من غير أن يكون

هذا التعلق عشقاً كما كان عشقاً عميقاً عند قيس بن الملوح أو قيس بن ذريح فإذا رق شعر امرئ القيس وقارب شعر العاطفة والوجدان قال فى وصف حبيبته :

تُضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممْسَى راهب مُتَبَتِّلِ

ولكن أكثر نسيبه نسيب صنعة ووصف للذات . وكذلك نسيب مشهورى الشعراء فى ذلك العصر أمثال الأعشى والنابغة وزهير بن أبى سلمى وكعب بن زهير وطرفة بن العبد وغيرهم وهم الذين سنوا سنة غزل المحاكاة لشعراء الدولة الأموية ومحاكاة المحاكاة للعباسيين والمتأخرين وكان العبث اللفظى يزداد كلما بعد العهد بمن سنَّ هذه السنة فى صناعة الشعر . وقد فطن جرير فى عهد الدولة الأموية إلى إن الصناعة وحدها لا تسيّر الشعر ولا تجعله يأخذ بمجامع القلوب فصار يخلط بين تمثيل العاطفة أو محاكاتها وبين الوجدان . ومن أجل ذلك كان شعره أرق وأسير فى عهده من شعر الشعراء المنافسين له .

ولكنا إذا أردنا أن نجمع مجموعة من شعر النسيب فى اللغة العربية نفاخر بها اللغات الأخرى لم نلجأ إلى شعر امرئ القيس أو الأعشى أو أمثالهما ولا إلى شعر جرير والأخطل والفرزدق وأمثالهم ولا إلى شعر أبى نواس ومسلم بن الوليد وأبى تمام والبحترى وأمثالهم فإن هؤلاء امتازوا بالقول فى أبواب مختلفة من الشعر ولكن بزهم فى النسيب قيس بن الملوح وقيس بن ذريح وأبو صخر الهذلى وعروة بن حزام وابن الدمينة وجميل بن معمر وكثيّر على قلة ما انتهى إلينا من أقوال هؤلاء . وهؤلاء هم الذين قالوا أحسن ما قيل فى النسيب فى اللغة العربية وبهم نفاخر وهم الذين نرشح لينوبوا عن النسيب العربى فى معرض النسيب بين الأمم . انظر مثلاً إلى قول قيس بن الملوح من قصيدة فى التذكر والتمنى وهما موضوعان هامان من موضوعات النسيب قال :

فوالله ما أنساكِ ما هبت الصَّبا وما غرَّد الغِرِّيدُ فى وَضَحِ الفجر
وما لاح نجم فى السماء وما بكت مطوَّقةٌ شوقاً على فنن السدر
وما طلعت شمس لدى كل شارق وما هطلت سحب على واضح الزهر

إلى أن قال :

تداويت من ليلى بليلى من الهوى ... كما يتداوى شارب الخمر بالخمر
إذا ذُكِرَت يرتاح قلبى لذكرها ... كما انتفض العصفور من بلل القطر
ألا ليتنا كنا غزالين نرتعى ... رياضاً من الجوزان فى بلد قفر
ألا ليتنا كنا حمام مفازة ... نطير ونأوى بالعشىّ إلى وكر

واستمر فى ذكر أمانيه المختلفة إلى أن قال :

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من مِنى ... فهيَّج أطراب الفؤاد ولا يدرى
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما ... أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

فهذا الشعر ليس فيهِ روعة الصنعة التى فى غزل أصحاب المعلقات ولكنهُ شعر صادق دافق من القلب يدل على أن قائله شاعر بطبعهِ وخياله ووجدانه ويدل على عاطفة صادقة تأخذ المألوف من مظاهر الكون والخليقة من تغريد الطيور فى وضح الفجر ومن هبوب النسيم وهطول المطر ونضرة الزهر وانتفاض العصفور والحمام فى الوكر والغزال فى القفر كى تعبر بها عن ذكريات القلب وأمانيه وهذه الوسائل التى تستخدمها والتشبيهات هى ألوان مادة الشاعر فليس كل شعر يحتويها بشعر كما أن ليست كل صورة ذات ألوان بصورة . وإنما العاطفة هى التى تجعلها شعراً . وانظر إلى قول قيس بن الملوح أيضاً :

وأحبس عنكِ النفس والنفس صبة ... بذكراك والمسعى إليك قريب
مخافة أن تسعى الوشاة بظنة ... وأحرسكم أن يستريب مريب
سأستعطف الأيام فيك لعلها ... بيوم سرورٍ من هواك تؤوب

وقوله :

فأصبحت من ليلى الغداة كناظر ... مع الصبح فى أعقاب نجم مُغرِّبِ

وقوله :

الله يعلم أن النفس هالكة ... باليأس منكِ ولكنى أمنّيها
وساعة منكِ ألهوها وإن قصرت ... أشهى لدىَّ من الدنيا وما فيها

وقوله :

وكنت كذبَّاح العصافير دائباً ... وعيناه من وجدٍ عليهنَّ تهمل
فلا تنظرى ليلى إلى العين وانظرى ... إلى الكف ماذا بالعصافير تفعل

وهو لا يعنى كل ذباح للعصافير وإنما هو فرض كى يمثل معنى فعل الحب به وانظر إلى قولهِ فى قصيدته اليائية الكبيرة :

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا
وخبّرتمانى أن تيماء منزل ... لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذى شهور الصيف عنا تصرمت ... فما للنوى ترمى بليلى المراميا
وما طلع النجم الذى يهتدى به ... ولا الصبح إلاَّ هيَّجا ذكرها ليا
أعد الليالى ليلة بعد ليلة ... وقد عشت دهراً لا أعد الليالیا
يقولون ليلى بالعراق مريضة ... فياليتنى كنت الطبيب المداويا
ولم أرَ مثلينا خليلىْ جناية ... أشد على رغم العداة تصافيا
خليلان لا نرجو لقاءً ولا ترى ... خليلين إلاّ يرجوان التلاقيا
وإنى لأستحييك أن تعرض المنى ... بوصلك أو أن تعرضى فى الدجى ليا
وأنتِ التى إن شئتِ أشقيتِ عيشتى ... وأنتِ التى إن شئتِ أنعمتِ باليا
وإنى لينسينى لقاؤك كلما ... لقيتكِ يوماً أن أبثك ما بيا
إذا سرت فى أرض خلاء وجدتنى ... أصانع رجلى أنَّ ليلى حذائيا
يميناً إذا كانت يميناً وإن تكن ... شمالاً ينازعنى الهوى عن شماليا
وأنى لأستغشى وما بىَ نعسة ... لعل خيالاً منك يلقى خياليا
هى السحر لولا أن للسحر رقية ... وأنى لا ألقى لها الدهر راقيا

لا أظن أن شاعراً يستطيع أن يميز الشعر الصادق يقول كما قال بعض الكتاب أن شعر قيس بن الملوح من وضع الرواة وأن قيساً هذا لم يكن له وجود . نحن نفهم هذا القول لو كان الشعر فاتراً أو بارداً أو كاذباً أو مصطنعاً [1]

---

(١) مثل ذلك إذا قارن القارئ المتذوق معلقة عنترة العبسي (وهي لاشك من شعر شاعر) وبعض القصائد الفاترة الركيكة التي تنسب إلى عنترة سهل عليه تمييز الشعر الصادق والشعر الموضوع .

يستطيع أن يقوله كل إنسان ، أما أن يصنع الرواة شعراً من أصدق وأحسن ما قيل فى اللغة العربية من النسيب فهذا رأى لا نستطيع الأخذ بهِ وأما أن بعض أبيات الشاعر نسبت إلى أكثر من شاعر فهذا لا يدل على شيء ولهُ مثيل فى كل عصر . وهذا شعر أبى تمام فيه أبيات وقصائد منسوبة إلى شعراء آخرين وهذا لا يدل على أن أبا تمام لم ينظم شعراً ولم يكن لهُ وجود وظاهرة إنكار الوجود هذه ظاهرة مألوفة فقد أنكروا وجود هومير وشكسبير . وهناك مؤلف مؤرخ ينكر وجود سيدنا عيسى عليه السلام وقد اختلف الرواة فى نسبة شعر كثيّر فاختلفوا فى نسبة قصيدة (صاح فى العاشقين يا لكنانه) وفيها البيت المشهور :

خطرات النسيم تجرح خدَّيـ ـهِ ولمس الحرير يدمى بنانهْ

وهى ليست من شعر المتقدمين حتى يقال إن قدم الزمن هو الذى أنسى الرواة ولم يقل أحد أنها من صنع الرواة أنفسهم واختلفوا فى نسبة شعر كثيرٍ للمتأخرين كقصيدة :

يا مطلباً ليس لى فى غيره أرب إليكَ آل التقصى وانتهى الطلب

فنسبت لابن الخيمى ونسبت لنجم الدين بن اسرائيل . واختلاف الرواة فى نسبة بعض شعر قيس بن الملوح لا يدل على شيء فإن شعره يدل على شخصية حية وعلى شاعر من الطراز الأول . ومثله فى تلك الخصائص وفى تلك المنزلة قيس بن ذريح انظر إلى قوله :

لقد كان فيها للأمانة موضع وللنفس مرتاد وللعين منظر
وللحائم العطشان رى بحسنها وللمرحِ المختال خمر ومسكر
كأنى لها أرجوحة بين أحبل إذا ذكرة منها على القلب تخطر

وقوله :

أحبك أصنافاً من الحب لم أجد لها مثلاً فى سائر الناس يوصف
فمنهنَّ حب للحبيب ورحمة لمعرفتى منها بما يتكلـــف
وحب بدا بالجسم واللون ظاهر وحب لدى نفسى من النفس ألطف

وإلى قوله :

تعلّق حبى روحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافاً وفى المهد
فزاد كما زدنا فأصبح نامياً وليس إذا متنا بمنصرم العهد
ولكنهُ باقٍ على كل حادث وزائرنا فى وحشة الموت واللحد

وقوله :

إذا طلعت شمس النهار فسلمى فآية تسليمى عليك طلوعها

وقوله :

بلبنى أنادى عند أول غشية ويثنى بها الداعى لها فأفيق
صَبوحى إذا ماذرَّت الشمس ذكرها ولى ذكرها عند المساء غبوق

وقد كان من رأينا دائماً أن شعر العاطفة والوجدان يتقارب فى جميع اللغات وإنما الذى يتباعد فى اللغات شعر الصنعة والمحاكاة بالصنعة لأن هذا أساسهُ العرف والاصطلاح والذوق الإقليمى . أما شعر العاطفة والوجدان فهو واحد فى كل إقليم وإنك لو نقلت الشعر الذى استشهدنا بهِ من شعر قيس بن الملوح أو قيس ابن ذريح إلى اللغات الأوربية لطرب لهُ القراء كما يطرب قراء العربية إذا نقل إليها شعر العاطفة والوجدان من اللغات الأوربية نقلاً صحيحاً لا سخيفاً . ويقارب قيس بن الملوح وقيس بن ذريح فى طريقتهما يزيد بن الطثرية الذى يقول :

برغمى أطيل الصد عنها إذا نأت أحاذر أسماعاً عليها وأعينا
أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

ويقول :

أحبك أطراف النهار بشاشة وبالليل يدعونى الهوى فأجيب
أحبك حب اليأس لو ينفع الهوى وإن لم يكن لى من هواك طبيب

ويقول :

بنفسىَ من لو مرَّ بردُ بنانه على كبدى كانت شفاءً أناملُهْ
ومن هابنى فى كل شىء وهبته فلا هو يعطينى ولا أنا سائلُهْ

ويقول :

أليس قليلاً نظرة إن نظرتها ... إليك وكلاً ليس منك قليل
فيا خلة النفس التى ليس فوقها ... لنا من أخلاء الصفاء خليل
ويا من كتمنا حبه لم يُطَعْ به ... عدو ولم يؤمن عليهِ دخيل
أما من مقام أشتكى غربة النوى ... وخوف العدا فيه إليهِ سبيل
وكنت إذا ما جئت جئت بحاجة ... فأفنيت علاتى فكيف أقول

ومثل هذا الشعر فى صدق التعبير عن الأحاسيس النفسية شعر أبى صخر الهذلى الذى يقول :

لقد كنت آتيها وفى النفس هجرها ... بتاتاً لأخرى الدهر ما طلع الفجر
فما هو إلاَّ أن أراها فجاءَة ... فأبهت لا عرف لدىَّ ولا نكر
وأنسى الذى قد كنت فيه هجرتها ... كما قد تُنسِّى لبَّ شاربها الخمر
وقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى ... أليفين منها لا يروعهما الذعر
تكاد يدى تندى إذا ما لمستها ... وينبت فى أطرافها الورق النضر
وإنى لتعرونى لذكراك هزة ... كما انتفض العصفور بَلَّله القطر

فهذا الشاعر لا ينظر فى دواوين الشعراء كى يرى ماذا يقال فى وصف هذه العاطفة وكيف يقال وإنما ينظر فى نفسه وأحاسيسها وهواجسها وما يعترى نفسه وجسمه من أثر العاطفة . ومن شعراء هذه الطريقة ابن الدمينة فإن شعره يرق ويصفو ويكتسب من وجدانه وعاطفته أنغاماً عذبة انظر إلى قوله :

أرى الناس يرجون الربيع وإنما ... ربيعى الذى أرجو نوال وصالكِ
أرى الناس يخشون السنين وإنما ... سِنِّى التى أخشى صروف احتمالكِ
لئن ساءَنى أن نِلْتِنى بمساءَة ... لقد سرنى أنى خطرت ببالكِ

وإلى قوله :

وقد زعموا أن المحب إذا نأى ... يمل وأن النأى يشفى من الوجد
بكلٍّ تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع ... إذا كان من تهواه ليس بذى ود

وقوله :

وإنى لأستحييك حتى كـأنما ... علىَّ بظهر الغيب منكِ رقيب
بنفسى وأهلى من إذا عرَّضوا له ... ببعض الأذى لم يَدْر كيف يجيب
ولم يعتذر عذر البرئ ولم تزل ... بهِ سكتة حتى يقال مريب

وهذه الأبيات الأخيرة إنما هى مثل من شواهد الخبرة بعلم النفس التطبيقى التى اكتسبها هؤلاءِ الشعراء لكثرة تأملهم فى صفات النفوس وهذه الخبرة بالنفس تقل فى شعر المتأخرين أو تنعدم إلاَّ ما كان مأخوذاً بالمحاكاة عمن قبلهم : ومن شعراء هذه الطريقة أيضاً جميل بن معمر انظر إلى قوله :

لقد قلتُ فى حبى لكم وصبابتى ... محاسن شعر ذكرهنَّ يطـول
فإنْ لم يكن قولى رضاك فعلمى ... نسيم الصَّبَا يابثنُ كيف أقول
فما غاب عن عينى خيالك لحظة ... ولا زال عنها والخيال يزول

وقوله :

ومما شجانى أنها يوم أعرضت ... تولت وماء العين فى الجفن حائر
فلما أعادت من بعيد بنظرة ... إلىّ التفاتاً أسلمتْه المحاجـر

على مثل هذه المشاهد النفسية وأثرها كان يعتمد هؤلاء الشعراء لا على المبالغة والتشبيهات البعيدة فكان شعرهم على سهولة وبساطة مشاهداتهم أوقع فى النفس من المبالغة والتشبيهات البعيدة وانظر إلى نصيب كيف يستخدم ما يشاهد من حياة الطيور لتصوير عاطفته فى قوله :

كأن القلب ليلة قيل يُغْدَى ... بليلى العامريـة أو يُـرَاح
قطاة غرَّهـا شَرَكٌ فبـاتت ... تُجاذِبُهُ وقد علق الجنـاح
لها فرخان قد تُرِكا بوكر ... فعشهمـا تُصفِّقُـهُ الريـاح
إذا سمعا هبوب الريح نصَّا ... وقد أودى بها القدر المتاح

وللشاعر كُثَيِّر أشعار عذبة تدل على وجدان ولو أنهُ كان يتهم بادعاء العاطفة انظر إلى قوله :

وأدنيتنى حتى إذا ما ملكتِنى ... بقول يُحلُّ العُصْمَ سهل الأباطح

تناهيتِ عنى حين ما لِيَ حيلة وغادرتِ ما غادرتِ بين الجوانح

وقولهُ فى تائيته الكبيرة :

وقلت لها يا عَزُّ كل مصيبة إذا وُطِّنَتْ يوماً لها النفس ذلتِ
وإنى وتهيامى بعزة بعدمـا تخلـيت مما بيننـا وتخلتِ
لكالمرتجى ظل الغمامة كلما تَبَوَّأَ منها للمقيل اضمحلت

وقوله :

كريم يميت السر حتى كأنهُ إذا استخبروه عن حديثك جاهلُهْ
ويرتاح للمعروف فى طلب العلا لِتُحْمَدَ يوماً عند ليلى شمائله

وفى هذه الأبيات أيضاً خبرة بصفات النفوس ودراسة سيكولوجية وتصوير لأثر الحب فى النفوس العالية . ومن الشعر العذب الشهى قول أبى بكر الزهري :

ولما نزلنا منزلاً طلهُ الندى أنيقاً وبستاناً من النَّوْرِ حاليا
أجدَّ لنا طيبُ المكان وحسنُهُ منًى فتمنينا فكنتِ الأمانيا

وقول الحارثى :

منًى إنْ تكن حقًّا تكن أحسن المنى وإلاَّ فقد عشنا بها زمناً رغدا

وكأنما كانت هذه الطريقة عاصفة اشترك فى إثارتها المرقش وعروة بن حزام وابن الدمينة وأبو صخر الهذلى وجميل بن معمر وعمر بن أبى ربيعة (وإن كان شعره أقرب إلى اللهو والعبث) وكثّير وقيس بن الملوح وقيس بن ذريح والعرجى والمخزومى وأبو دهبل وابن الرقيات وابن الطثرية وابن ميادة والأحوص ونصيب والمخبّل وذو الرمة والأبيرد وأبو حية النميرى وتوبة بن الحميّر والنهدى ومزاحم ووضاح اليمن وعروة بن أذينة وغيرهم وامتدت إلى عصر الحسين بن مطير والعباس ابن الأحنف . ولم ينعدم شعر العاطفة والوجدان بعد ذلك فإنا نرى شعراء الصنعة أمثال بشار وأبى نواس ومسلم وأبى تمام لهم بجانب مجونهم نسيب وجدانى رقيق ولكنهُ قليل . وقد كان البحترى ذا مزاج فنّى يشبهُ مزاج الممثّل الذى يتملكه ما يمثل من الأحاسيس . ومن أجل ذلك كان لهُ نسيب رقيق عذب . ولابن الرومى

نسيب وجدانى صادق ولكنه قليل [١] . وكان الشريف الرضى ذا وجدان فجاء نسيبه وجدانى النزعة وحاكاه مهيار ثم اعتمد الشعراء بعد ذلك على المغالاة والتشبيهات البعيدة أو الزخارف . وكان أكثر شعرهم محاكاة لمعانى من سبقهم ولم يخلف شعراء الصوفية مجموعة شعر ثمين عالٍ كما كنا نتنظر ولكنى أظن أن محيى الدين بن العربى والسهروردى وابن اسرائيل وابن الفارض لو تقدم بهم الزمن أو لو تأثروا بوجدان الشريف الرضى وأسلوبه لكان شعرهم أرقى منزلة فإن فيهم طبع الشعراء ومزاجهم ولكن تعوزهم قوة الأداء وفخامة الأسلوب وحسن الاختيار . فقصيدة السهروردى المشهورة التى مطلعها :

أبداً تحنُّ إليكمُ الأرواح ووصالكمْ ريحانها والراح

تبدأ مبدأ رائعاً ولكنها تفتر متأثرة بطريقة المتأخرين من ضعف فى الأداء .

وقد اشتهر بهاء الدين زهير شهرة لا تناسب قيمة شعره فمالهُ قوة فى الأداء ولا فخامة ولا روعة فى الأسلوبْ ولا وجدان عميق وأنغامه أنغام لفظية رخيصة مثل قوله :

أنـا بالعـاذل ألهو أنا بالعاذل ألـعب

وأحسن قصيدة فى النسيب قالها شعراء الأندلس والمغرب هى قصيدة ابن زيدون النونية التى يقول فى مطلعها :

أضحى التنائى بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وهى تجمع بين علو الصنعة وصفاء الوجدان فليس لمحمد بن هانىء الأندلسى فى النسيب ولا لابن حمديس ولا لابن خفاجة قصيدة تدانيها فى هذه الصفات . وهذه القصيدة تذكرنى بما يحكى عن بعض الطيور التى إذا حان حينها جمعت كل قوى روحها وأطلقتها فى تغريدة قبل موتها . ونسيب ابن زيدون على العموم

---

(١) من نسيب ابن الرومي الرائع قوله :

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تدانى
كأن فؤادي ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين يعتنقان

أكثر وجداناً من نسيب الآخرين وإن كان قد بزه الآخرون فى صفات أخرى فبزه ابن خفاجة وابن حمديس فى الأوصاف وربما كان قد بزه ابن هانىء الأندلسى فى الأسلوب الخطابى وإن لم يكن تحت أسلوب ابن هانىء الأندلسى الخطابى دائماً معنى أو مزية . على أن لمحمد بن هانىء قصائد رقيقة يتغنى بها مثل قصيدة (فتكات طرفك أم سيوف أبيك) وقصيدة (قمن فى مأتم على العشاق) .

أما نسيب ابن سهل فهو نسيب رقيق يتغنى ببعضه ولكنهُ ليس فيهِ روح العباقرة وثروتهم الشعرية ولا يحاول قائله الأناقة فى الأداء التى تزيد النسيب عذوبة وبعض الأناقة يفعل ذلك كما أن بعضها يثقل الشعر . ومما يُتغنى بهِ قوله (سل فى الظلام أخاك البدر عن سهرى) .

ومن التقسيم الذى فصلناه يتضح أنهُ ليس من المحتوم أن يطالب الشاعر بعشق كى يجيد النسيب ولكنهُ مطالب بوجدان يصدح ويعبر عن نواحى تلك العاطفة وبمزاج فنى سليم وبصيرة سيكولوجية تمكنهُ من فهم أحاسيس النفس ومن تصويرها .

* * *

الرثاء فى شعر العرب [١]

قد تقلبت على الشعر العربى عصور كثيرة لكل منها طريقة فى صنعة الشعر والأداء فيه ، وقد ظهر فى شعر المتأخرين أثر العبث والمغالطات اللفظية والمعنوية ، وإن كان الوجدان لم ينعدم كل الانعدام ، ومن الصعب أن نقصر صفة من صفات الشعر على عصر من العصور ، ولكنا نستطيع أن نقول على وجه الإجمال ، وإن شذت قصائد عديدة فى التفصيل والتطبيق ، إن رثاء المتقدمين كان أكثر نصيبا من الوجدان ، وصدق العاطفة والبصيرة النفسية ، وإن شعر كبار شعراء الدولة العباسية فى الرثاء كان أكثره رثاء تكسّب إلاّ ما كان فى رثاء قريب أو حبيب ، وقد كان رثاء التكسب فى شعر بعضهم أعظم منزلة فى الشعر من رثاء أقربائهم ، وكان عكس ذلك يصدق فى شعر آخرين ، وكانت تغلب على شعرهم جودة الصناعة والتأنق فيها ، وفى استنباط الأخيلة والتشبيهات ، وبعضهم كانت تغلب عليه نزعة التفكير ؛ ثم بعد هذا العصر ضعف الأداء وضعفت القدرة على الإتيان بالصناعة الفخمة الصادقة ، وكثرت المبالغة والمغالطة اللفظية والمعنوية . وقد يلتبس على القارئ نوع مبالغة العاطفة القوية ، ونوع مبالغة الصنعة الكاذبة التى تنم عن فتور العاطفة ونضوب العبقرية . والحقيقة هى أن المبالغة سواء أكانت فى الرثاء أو فى الغزل أو فى أى باب آخر من أبواب الشعر هى فى شعر العبقرى الصادق الصنعة ، وفى شعر الشاعر الذى تُسيِّرهُ العاطفة المالكة له من أبدع وأروع وأصدق ما يقال ؛ ولكن هذا الشاعر حتى فى تلك المنزلة الجليلة يكون كمن يطل على الشفير الهارى ، وخطوة واحدة قد تسقطه إلى حضيض الشعر ، حيث مغالاة الشعور الفاتر الذى يدعى صاحبه عظم العاطفة وصدق الوجدان ، وحيث مغالاة الشويعر الذى لا يفرق بين مبالغة العبقرى الصادق الصنعة ، ومبالغة المحاكاة والاحتذاء من غير فطنة وتمييز . والقارئ معذور فيما قد يقع فيه من الخطأ ، فالقراء قلما يفرقون بين نوعى المبالغة ، لولوع بعض كبار الشعراء بالمبالغة الكاذبة ، وقد يرى القارئ النوعين فى شعر شاعر واحد .

---

(١) نشر بمجلة الثقافة الأعداد [١٩ ، ٢٠ ، ٢١] فى ٩ ، ١٦ ، ٢٣ مايو سنة ١٩٣٩ م .

وسنستعرض الرثاء فى شعر العرب فى هذه المقالة ، وما قد يدخل فى بابه من جيد القول .

وأول ما نذكر فى هذا الباب قول امرئ القيس ، وقد مر بقبر عربية فى بلاد الروم . فقال أبياته المشهورة التى يقول فيها :

أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب

ولعل هذه الأبيات من أصدق ما قاله امرؤ القيس وجدانا وعاطفة بسبب ما لقيه من خطب فى بلاد الروم ، وقد ذهب إليها يطلب أن يعان على قتلة أبيه ، فلم يظفر بمعونة ، وهى تختلف فى أثرها فى النفس عن شعر لهوه وعبثه . ومن الشعر المؤثر قصيدة عدى بن زيد التى يقول فى مطلعها :

أيها الشامت المعيِّر بالدهـ ـر أأنت المبرأ الموفـور

وفيها يشير إلى قصة صاحب قصر الخورنق . ومن بديع وصف أثر الموت فى الأحياء قوله :

ثم أضحوا كأنهم ورق جـ ـف فألوت به الصَّبا والدَّبور

وله قصيدة أخرى فى قصة الزبَّاء وجذيمة . ولو تفرغ عدى بن زيد للشعر القصصى لخلف ذخراً ثمينا . ومن مشهور الرثاء رثاء مُهَلْهِل لأخيه كليب الذى هاجت بمقتله حرب البسوس ، ورثاء جليلة بنت مرة أخت جساس قاتل كليب لزوجها كليب ، وقد كانت جليلة بين شقى الرحا أو بين المطرقة والسندان ، ولعل مصيبتها فى أسرة القاتل والمقتول أخيها وزوجها أثرتا فى قولها . وقد رأيت من يقول إن أشعارها منحولة لأنها ليست فيها فخامة الشعر الجاهلى كشعر المعلقات . وقد نسى هؤلاء أنها لم تكن تقول الشعر صناعة ، وأن الشعر الجاهلى ليس كله فى مستوى واحد ، فبعضه – حتى فى شعر الشعراء المعروفين الذين لم يقل أحد بأن شعرهم منحول – يفتر فى القول وتقل فيه الصنعة ، وبعض الشعر العباسى الذى تعمد فيه الشاعر الصنعة والفخامة أو الغرابة فى الأسلوب ، قد يكون أشبه بالشعر الجاهلى من بعض الشعر الجاهلى أو الشعر الأموى ؛ ولكن هذا ليس حجة لمن يقول إن الشعر الفاتر أو القليل الفخامة فى الشعر الجاهلى

أو الأموى منحول موضوع . ومما يستجاد فى الرثاء أيضاً قصيدة عبد يغوث فى رثاء نفسه ، ولعل تحسر الشاعر على ضياع حياته مع إظهار البسالة مما يجعل مثل هذا الشعر مأثوراً . ومثلها قصيدة مالك بن الريب فى رثاء نفسه أيضاً ، وفى قصيدة عبد يغوث يتلهف وهو يموت على سماع نشيد الرِّعاء فى قوله :

أحقا عباد الله أن لستُ سامعا نشيد الرِّعاء المعزبين المتاليا

ومثل هذا التشوق الشجى تشوق مالك بن الريب فى قصيدته إلى رؤية سهيل النجوم . إذ يقول :

« يقر بعينى أن سهيل بدا ليا »

وتستجاد فى الرثاء أبيات عبدة بن الضبيب التى يقول فيها :

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

ومن الرثاء الجيد قصيدة دريد بن الصمة يرثى بها أخاه ، وفى هذه القصيدة من واجب مؤازرة المرء قومه ومناصرته إياهم ، وإن كانوا على غير هدى ، ما يقول فيه الشاعر :

أمرتهمُ أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلاَّ ضحى الغدِ
فلما عصونى كنتُ منهم وقد أرى غوايتهم أنى بهمْ غير مهتدى
وهل أنا إلاَّ من غَزِيَّة إن غَوَتْ غويت ، وإنْ ترشد غزيَّة أرشدِ

ومن ذكر محاسن الميت فيها قوله :

قليلٌ تَشَكِّيهِ المصيبات ذاكر من اليوم أعقاب الأحاديث فى غدِ
إذا هبط الأرض الفضاء تزينت لرؤيتــه كالمأتم المتبـــدد

ومما يستجاد فى الرثاء قصيدة قس بن ساعدة يرثى نديميه وفيها يقول :

خليلىَّ هُبَّا طالما قد رقدتما أجدَّكما لا تقضيان كـراكما

وهى من الشعر السهل الكثير العاطفة . ولتأبط شرا قصيدة فى رثاء خاله ونسبت لابن أخته أيضاً ، وهى التى يقول فيها :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيـلاً دمـه مـا يُطَـلُّ

وقد قيل إنها موضوعة منحولة واتهموا خلفا الأحمر أو حماداً الراوية بوضعها ، وفى القصيدة بيت فيه شيء من قبيل الجناس والتورية ، إذا لم يكن أتى عفواً فهو دليل قاطع على أنها منحولة لأنه بعيد عن ذوق المتقدمين ، وهو قول الشاعر ويعنى بالخل الهزيل :

فاسقنيها يا سواد بن عمرو إن جسمى بعد خالى لَخَلُّ

فذكر الخمر والخل والخال والخل بعيد عن ذوق المتقدمين إن لم يكن قد أتى عفواً ، ولم يفكر الشاعر إلا فى معنى واحد لكلمة خل ، وعلى كل حال فإن راويةً كبيرا كخلف الأحمر أرفع ذوقاً من أن يتعمد هذه الألاعيب فى التورية أو الجناس ، ومن المستحيل أن يتعمدها تأبط شرا .

ومن جيد الرثاء قصائد الخنساء فى أخيها صخر إلا أنها أكثرت وكررت ، فصار فى قولها لجاجة المآتم ، ومن مشهور قولها :

قد كنتَ تحمل قلباً عير مُؤْتَشِبٍ مُرَكباً فى نصاب غير خوَّارِ

وقولها :

وإنّ صخراً لَتَأْتَمّ الهداة به كأنّه عَلَمٌ فى رأسه نـارُ

وقولها :

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ، ولكنْ أُسَلِّى النفس عنه بالتأَسِّى

ومن الرثاء الجيد قول مُتَمِّم بن نويرة يرثى أخاه مالكا من قصيدة رائعة :

وكُنَّا كندمانىْ جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تَفَرَّقْنا كأنى ومالكـا لطول اجتماع لم نَبِتْ ليلةً معا

وقصيدة أبى ذؤيب الهذلى فى رثاء أبنائه من أبدع ما قال المتقدمون فى الرثاء ، وهذه قصيدة جامعة فى فنها ، ومثال من الفن العالى ، وفيها يقول :

وتجَلدى للشامتين أُرِيهِمُ أنّى لريب الدهر لا أتضعضع

ويقول :

والنفس راغبة إذا رغَّبتها وإذا تُرَدّ إلى قليل تقنع

ومن حكم الرثاء قصيدة لبيد فى رثاء أخيه التى مطلعها : « بلينا وما تبلى النجوم الطوالع » . وفيها يقول :

وما المرء إلا كالضرام وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

ومن مأثور الرثاء فى شعر المتقدمين قصيدة علقمة ذى جدن التى مطلعها :

« لكل جنب (إجْتَنَى) مُضْطَجَعْ »

وإجتنى اسم المرأة التى يخاطبها ، وفى هذه القصيدة شىء من جلال الموت وروعة زوال العظمة . وقد اشتهر كثير من نساء العرب بالمراثى ، وقد ذكرنا مراثى الخنساء ، ومنهن أيضاً ليلى الأخيلية التى رثت توبة بن الحُمَيِّر الشاعر بقولها من قصيدة :

لعمرك ما بالموت عار على الفتى إذا لم تُصبه فى الحياة المعاير [1]

ولها بيتان فى اجتماع الرجولة والتواضع والحياء والبسالة وهما قولها :

ومُخَرَّقٍ عنه القميص تخاله بين البيوت من الحياء سقيما
حتى إذا رُفِعَ اللواء رأيته تحت اللواء على الخميس زعيما

(الخميس الجيش) ومن نساء العرب اللواتى اشتهرن بالرثاء أخت الوليد ابن طريف التى رثته بقصيدة من أعيان الشعر ، وهى التى تقول فيها :

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تحزن على ابن طريف

وتقول :

فقدناك فقدان الربيع وليتنا فديناك من فتياننا بألــوف

وقولها إن الشجر مورق كأنه لم يحزن أصدق فى فن الشعر وأوقع فى النفس من قول من يقول إن الشجر صوحت أوراقه حزناً على المرثى . ومن جيد الرثاء فى أشعار المتقدمين قول مضاض بن عمرو من قصيدة :

---

(١) هذه القصيدة في كتاب « الشعر والشعراء » منسوبة إلى ليلى الأخيلية ، ولكنها في « الأغاني » منسوبة للرقاشي الشاعر . والمبرد في الكامل ينسبها لليلى كما ينسبها ابن قتيبة صاحب « الشعر والشعراء » .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يَسمُر بمكة سامر

وشعر أبى زبيد الطائى فى الرثاء شجى وفيه نغمة من شعر عدى بن زيد . كما أن رثاء ابن مناذر فيه نغمة من شعر أبى زبيد الطائى ، ويعجبنى لأبى زبيد قوله :

من يَخُنْك الصفاء أو يتبدل أو يزل مثل ما تزول الظلال
فاعلمنْ أننى أخوك أخو العهـ ـد حياتى حتى تزول الجبال
ولك النصر باللسان وبالكف إذا كان لليديـــن مَصَالُ

ومن مأثور الرثاء قصيدة زياد الأعجم فى المغيرة بن المهلب وفيها يقول :

إن السماحة والمروءة ضُمِّنَا قبرا بِمَرْو على الطريق الواضح

ومراثى الشمردل والأبيرد مشهورة . وقد أورد المفضل الضبى فى المفضليات قصيدة لأعرابية فى رثاء ابن لها وهى التى تقول فيها : « يا عمرو يا أسفى على عمرو » . وهى من رثاء العاطفة لارثاء الذكاء والفكر . ولأعشى باهلة مرثيته المشهورة التى يقول فيها : « إنى أتتنى لسان لا أُسَرُّ بها » وفيها يقول فى مدح المرثى :

مَنْ ليس فى خيره منٌّ يُكَدِّرُهُ على الصديق ولا فى صفوه كَدَرُ
وليس فيه إذا استنظرته عجل وليس فيه إذا ياسرته عسر
مُرْوِى حروب شهابٌ يستضاء به كما أضاء سوادَ الطخية القمرُ

ومن جيد التأبين أيضاً قول محمد بن كعب الغنوى فى رثاء أخيه وهى قصيدة من أعيان الشعر وفيها يقول :

فتى ما يبالى أن يكون بجسمه إذا نال خلاّت الكرام شحوب
إذا ما تراآه الرجال تحفَّظوا فما تُنطِقُ العوراء وهو قريب
حليم إذا ما الحلم زَيَّنَ أهله مع الحلم فى عين العدو مهيب

وتُستَجَادُ قصيدة شبل بن معبد البجلى التى يقول فيها :

فقد أصبحوا لا دارهم منك غربة بعيد ولا هم فى الحياة قريب
ولسنا بأحيا منهم غير أننا إلى أجل نُدْعى له فنجيب

ومن مأثور الرثاء قول كُثَيِّر الشاعر فى رثاء صديقه الأسدى وفيه البيت المشهور :

فلا تبعد فكل فتى سيأتى عليه الموت يطرق أو يغادى

وقد قيل إن أبا زكار الأعمى المغنى كان يغنى به فى مجلس جعفر البرمكى عندما أتى خادم الرشيد للفتك به ، وهذا من غريب الصدف ، كما ذكروا أيضاً عن بيت حريث بن جبلة العذرى ، فقد وجد مصداقا فى الحياة أو وضعت له قصة مصداق والبيت هو :

يبكى الغريب عليه ليس يعرفه وذو قرابته فى الحى مسرور

ومن الصدف التى تدعو إلى التشاؤم أن أرطاة بن سُهَيَّة ، وكان يكنى بأبى الوليد ، أنشد عبد الملك بن مروان ، وكان أيضاً يكنى بأبى الوليد قوله :

رأيت المرء تأكله الليالى كأكل الأرض ساقطة الحديد
وما تبقى المنية حين تأتى على نفس ابن آدم من مزيد
واعلم أنها ستكُر حتى تُوَفِّىَ نذرها (بأبى الوليد)

ومن مأثور الرثاء قصيدة جرير فى رثاء زوجه نوار ، وأحسن ما فيها وصف محاسن شمائل النساء .

وقد استجاد المبرد فى كتابه (الكامل) مرثية ابراهيم بن المهدى فى ابنه ، وهى من شعر العاطفة السهل المأخذ الخالى من جلال الصنعة . ومن المأثور رثاء مروان بن أبى حفصة فى معن بن زائدة وهو قوله : « مضى لسبيله معن وأبقى » إلخ .

وأحسن منه فى رثاء معن هذا قول الحسين بن مطير من قصيدة :

فيا قبر معنٍ كيف واريت جودَه وقد كان منه البر والبحر مترعا
فتى عِيشَ فى معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

(ويروى ممرعا بدلا من مرتعا)

ومراثى أبى العتاهية من مأثور الرثاء ، إذ أن التفكير فى الموت كان متمكنا من نفسه تمكنا كبيراً ، ويروى له قوله :

وكانت فى حياتك لى عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيًّا

وقوله :

قد لعمرى حكيتَ لى غصص المو ت وحَرَّكتنى لها وسكنتا

ولمحمد بن مناذر مرثيته الشهيرة فى عبد المجيد الثقفى ، وقد قالها على وزن وقافية وروى قصيدة فى الرثاء لأبى زبيد الطائى الذى تقدم ذكره . وفى شعر ابن مناذر شىء من نغمة شعر أبى زبيد الطائى وعدى بن زيد ، وتراه فى هذه القصيدة ينحو منحى عدى بن زيد فى الإشارة إلى قصص الملوك والدول الزائلة ، وفى القصيدة يقول :

يقدح الدهر فى شماريخ رضوى ويحط الصخور من هبُّود
ولقد تترك الحوادث والأ يام وهيا فى الصخرة الصيخود

وفيها يقول :

وأرانا كالزرع يحصده الدهـ ـر فمن بين قائم وحصيد
وكأنا للموت ركب مُخبُّو ن سراعـا لمنهل مـــورود

ومن بديع وصفه للمرثى قوله :

حين تمت آدابه وتـــردّى برداء من الشباب جديـد
وسقاه ماء الشبيبة فاهتـــ ـز اهتزاز الغصن النَّدِى الأملود
وسَمَت نحوه العيون وما كا ن عليه لزائدٍ من مزيـد
وكأنى أدعوه وهو قريب حين أدعوه من مكان بعيد
فلئنْ صار لا يجيب لقد كا ن سميعاً هَشًّا إذا هو نودى [1]

---

(١) كتاب الكامل للمبرد من الكتب القليلة التي جاءت بأكثر هذه القصيدة . وابن مناذر هذا من الشعراء الذين نأسف لضياع أكثر شعرهم ، كما نأسف لضياع أكثر شعر دعبل الخزاعى وأشجع السلمى ، فمن القليل المخلف نستطيع أن نقول إنهم كانوا من الطراز الأول .

ومسلم بن الوليد من الشعراء الذين أجادوا الرثاء بقدر إجادتهم المديح . ومن رثائه المأثور قصيدته فى يزيد بن مزيد التى يقول فيها :

أحَقًّا أنه أودى يزيد تأمَّل أيها الناعى المُشِيدُ
أتدرى من نعيتَ فكيف فاهت به شفتاك كان بها الصعيد
أحامى المجد والإسلام أودى فما للأرض ويحك لا تميد

وقوله « فما للأرض لا تميد » يذكرنا قول الفارعة أخت الوليد بن طريف : « أيا شجر الخابور مالك مورقا » . وقد فضل مسلم أيضاً الصنعة الشعرية العالية الصادقة ، فلم يقل إن الأرض مادت لمصرع المرثى .

ومن الرثاء المؤثر قول محمد بن عبد الملك الزيات فى رثاء زوجه ، وحزن ابنه الصغير عليها :

ألا مَنْ رأى الطفلَ المفارقَ أُمه بَعيدَ الكرى عيناه تنسكبان
رأى كلَّ أم وابنها غير أمهِ يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً فى الفراش تُجِنُّه بلابل قلب دائم الخفقان
فهبنى عزمتُ الصبر عنها لأننى جليد فمن بالصبر لابن ثمان
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حِسْبةً ولا يأتسى بالناس فى الحدثان

ويعجبنى فى الفراق الذى يذكر بفراق الموت قول العتابى مخاطباً الفرقدين :

أيُّنا قَدَّمتْ صروف المنايا فالذى أخَّرتْ سريع اللحاق
كم صَفِيَّيْنِ مُتِّعَا باتفاق ثم صارا لغربةٍ وافتراق
قلتُ للفرقدين والليل مُلْقٍ سُودَ أكنافه على الآفاق
إبقَيَا ما بقيتما سوف يُرْمَى بين شخصيكما بسهم الفراق

ومناجاة العتابى للفرقدين فى أثرها فى الوجدان تذكرنى مناجاة مطيع بن إياس لنخلَتَى حلوان فى قوله :

أسعدانى يا نخلتى حلوان وارثيانى من ريب هذا الزمان
واعلما أن ريبه لم يزل يفـ ـرق بين الأُلاَّف والجيران
ولعمرى لو ذقتما ألم الفر قة أبكاكما الذى أبكانى

أسعدانى وأيقنا أن نحساً سوف يلقاكما فتفترقان

وقول العتابى « قلت للفرقدين » يذكرنى من شعر المتأخرين قول شهاب الدين بن فهد الحلبى فى قصيدة « إن من تهواه قد ظعنا » ، وهى من الشعر الوجدانى المؤثر ، وقد قال فيها :

قلت للبدر المنير وقد غاب من أُربَى عليه سَنَا
غب أو اطلع إن أردت فما فيكَ لى عمَّن فقدتُ غِنَى
أنبأتنى الشمس عنه وعن بدرها إذْ غاب واقترنا
نحن كنا إخوة شَرَفاً فأصاب الدهر أحسننا

إلى أن قال :

أرتجى واليأس يهزأ بى أن يضمَّ الدهر أُلْفَتَنَا
وضلال الحب غادر لى فيكمُ بعد المنون مُنَى

وفى القصيدة يصف الشاعر ويقارن بين أثر محاسن الطبيعة والحياة فى نفسه قبل فقد أحبابه وبعد فقدهم ، وهى من الشعر المختار من كتاب « فوات الوفيات » للصلاح الكتبى ، وهو الكتاب الذى أكمل به « وفيات الأعيان » لابن خلّكان . ومراثى عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن فى جاريته التى قتلها غيرة مشهورة ، ولكن تعجبنى قصيدته فى رثاء خل له وهى التى قال فيها :

وتضحك سن المرء والقلب مُوجَعٌ ويَرضى الفتى عن دهره وهو عاتب

إلى أن قال :

فتى كان مثل السيف من حيث جئته لنائبة نابتك فهو مُضَارِبُ
بكاك أخٌ لم تَحْوِهِ بقرابة بَلَى إنَّ إخوان الصفاء أقارب
وأظلمت الدنيا التى كنتَ جارها كأنك للدنيا أخ ومُنَاسِبُ

وقد اشتهر أبو تمام بمراثيه الرائعة مثل قصيدة « كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر » وقصيدة « إن المنون إذا استمرّ مريرها » فى رثاء ابنى عبد الله بن طاهر ، وقصيدة فى رثاء بنى حميد ، وهى التى يقول فيها :

وأنفس تسع الأرض الفضاء فلا يرضون أو يجشموها فوق ما تسع
يود أعداؤهم لو أنهم قُتِلُوا وأنهم صنعوا بعض الذى صنعوا
عهدى بهم تستنير الأرض إن نزلوا بها وتجتمع الدنيا إذا اجتمعوا

والقصيدة التى يقول فيها : « هو الدهر لا يشوى وهن المصائب » وغيرها . والغريب أن له قصائد فى الرثاء عديدة أفخم وأعظم من رثائه لابنه الوحيد ، ولعل العاطفة قهرته ومنعته من إجادة الصنعة وبددت قوتها فيه .

واشتهر البحترى بقصائد فى الرثاء مثل رثاء المتوكل ورثاء الفرس ووصف آثارهم وهى السينية المشهورة ، وله فى رثاء بنى حميد قصيدة من أروع الشعر وهى التى يقول فيها مخاطباً قصرهم :

فصرْتَ كعش خلفته فراخه بعلياء فرع الأثلة المتهشم
فكل له قبر غريب ببلدة فمن منجد نائى الضريح ومُتْهِم
قبور بأطراف الثغور كأنما مواقعها منها مواقع أنجم

إلى أن قال :

سلام على تلك الخلائق إنها مُسَلَّمَةٌ من كل عار ومأثم

ومن أجلِّ الشعر تائية دعبل فى رثاء آل البيت التى مطلعها :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

وفيها يقول :

بنات زياد فى القصور مصونة وآل رسول الله فى الفلوات
إذا وتُروا مدوا إلى أهل وترهم أكفًا عن الأوتار منقبضات

وكان دعبل يتهم أبا تمام بالسرقة من أشعار من جاء قبله كما ذكر فى الأغانى ، ولكن فاته أن أخذ أبى تمام كأخذ الملك الفاتح الغازى لا كأخذ قاطع الطريق .

وقد أجاد ابن الرومى كل الإجادة فى مرثيته الدالية لابنه التى يقول فيها : « بكاؤكما يشفى وإن كان لا يجدى » . ومن رائع الرثاء قصيدته فى يحيى بن عمر

العلوى التى يقول فيها [١] :

لِمَنْ تستجد الأرض بعدك زينة ... فتصبح فى أثوابها تتبرَّج ؟
سلام وريحان وروح ورحمة ... عليك وممدود من الظل سجسج
ولا برح القاع الذى أنت جاره ... يرفُّ عليه الأقحوان المفلَّج

وقد نحا فيها منحى دعبل الخزاعى فى قوله :

فآل رسول الله نُحْفٌ جسومهم ... وآل زيادٍ حُفَّلُ القَصَراتِ

فقال :

أفى الحق أن يُمْسُوا خِمَاصاً وأنتمُ ... يكاد أخوكم بِطْنَةً يَتَبَعَّجُ
وليدهمُ بادى الضوى ووليدكمْ ... من الريف ريان العظام خدَلَّجُ

وقد أجاد المتنبى فى رثاء أم سيف الدولة فى القصيدة الجامعة التى يقول فيها :

ولو كان النساء كمن فقدنا ... لَفُضِّلَتِ النساء على الرجال

وقد انتقد ابن رشيق فى كتاب « العمدة » كما انتقد الصاحب بن عباد قوله « الوجه المُكَفَّن بالجمال » وقال ما كان يحسن ذكر الجمال فى رثاء عجوز ، ولكن هذا مغالاة فى النقد ، فإن جمال الشيخوخة لا يستدعى الشهوة وإنما يستدعى زيادة الإجلال والخشوع . وأجاد المتنبى فى رثاء يماك مملوك سيف الدولة ومزجه بالحكمة فى قوله :

وقد فارق الناس الأحبة قبلنا ... وأعيا دواءُ الموت كلَّ طبيب
سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها ... مُنِعْنَا بها من جيئة وذهوب
تملكها الآتى تَملُّكَ سالب ... وفَارقها الماضى فراق سليب
ولا فضل فيها للشجاعة والندى ... وصبر الفتى لولا لقاء شَعُوب
وأوفى حياة الغابرين لصاحب ... حياة امرئ خانته بعد مشيب

---

(١) أفسد ابن الرومي هذه القصيدة بالفحش في الأبيات التي أولها (بآية أن لايبرح المرء منكم) الخ .

وهو أيضا يخلط الحكمة بالرثاء فى رثاء أخت سيف الدولة فى قوله : « فلا تنلك الليالى » إلخ . وقد أبدع أيضا فى رثاء جدته فى القصيدة التى يقول فيها :

عرفت الليالى قبل ما صنعت بنا فلما دهتنى لم تزدنى بها علما

على أن نقد ابن رشيق كان ينبغى أن ينصب على جانب من رثاء المتنبى ترك فيه صنعة الفارعة أخت الوليد بن طريف فى قولها : « أيا شجر الخابور مالك مورقا » وصنعة مسلم بن الوليد العالية فى قوله : « فما للأرض ويحك لا تميد » وقال إن الكون اضطرب لموتى المرثى :

والشمس فى كبد السماء مريضة والأرض واجفة تكـــاد تمور

ولو احترس وقال حَسِبنا الشمس إلخ لكان أفخم . وله فى رثاء عمة عضد الدولة بجانب الحكمة العالية مغالطات من ذكاء الصنعة ، والحقيقة هى أن الشعر فى هذا العصر بدأت تختلط فيه مبالغة العاطفة والصنعة الحاذقة العالية بمبالغة المغالطات الفكرية واللفظية ، وهذا يتضح أيضاً فى شعر المعرى على حكمته وعلو منزلته ، فتراه يؤبن أباه ويصف نفسه بالحزن بعده وقلة الضحك فلا يظهر فمه ثناياه فيقول :

كأن ثنايـاه أَوَانِسُ يُبْتَغَـى لها حسن ذكر بالصيانة والسَجْنِ

وهذا تخيل بديع ، ولكنه بعيد عن عاطفة الحزين لموت أبيه . وأحسن من هذا قصيدته التى مطلعها « غير مُجْدٍ فى ملّتى واعتقادى » والأخرى التى مطلعها « أحسن بالواجد مِن وجدِه » . ومن عالى الحكمة فيها قوله :

والقلب من أهوائه عابدٌ ما يعبد الكافر من بدِّهِ

أى أن القلب يعبد أهواءه كما يعبد الكافر الصنم المعبود .

ومن مأثور الرثاء قصيدة ابن نباته السعدى فى رثاء أمه ، وفيها يقول :

فقدتُ كبيراً بر أم حَفِيَّةٍ كما فقد الثدىَ المعلَّلَ مُرضَعُ

وهذا يشبه قول المعرى فى رثاء أمه :

مضت وقد اكتهلتُ فخلت أنى رضيع ما بلغت مَدَى الفِطَام

وقد كان عبد العزيز بن نباتة السعدى والشريف الرضى ومهيار الديلمى أُوِدَّاء ، ومن أجل ذلك يتقارب شعرهم فى نغمته ووجدانه . وللشريف مراثٍ رائعة فى جده الحسين رضى الله عنه وفى أمه وفى آل المسيب وفى الصاحب بن عباد وفى صديقه أبى هلال الصابى ، وفى رثاء الصاحب يقول :

كان الغريبة فى الأنام فأصبحوا من بعد غارب نجمه أمثالا

وفى رثاء الصابى يقول :

كم من طويل العمر بعد وفاته بالذكْرِ يُصحب حاضراً أو بادى
ما مات من جَعَلَ الزمان لسانَه يتلو مناقب عُوَّدا وبوادى
فاذهب كما ذهب الربيع وإثْرُهُ باق بكل خمائل ونجاد
لا تبعدنَّ وأين قربك بعدها إن المنايا غاية الإبعاد

وقد أجاد مهيار تلميذ الشريف الرثاء كما فى رثائه ابن نباتة فى قوله :

أفلم يَرُعْهَا منك نفس حرة كنتَ الوحيدَ بها وأنت قبيل
غَنِيَتْ عن الآمال باستعفافها ولكل صاحب حاجة تأميل

وفى رثائه الشريف الرضى فى قوله :

عادت أراكة هاشم من بعده خورا لفأس الحاطب المتوقد
فجعت بمعجز آية مشهودة ولرب آيات لها لم تُشْهَدِ

وفى رثائه لغلام تبناه يقول :

فُجِعتُ به غَضَّ الشمائل والهوى مُسنَّ الحجى والفضل مقتبل السن
على حين قامت للمنى فيه سوقها وحقت شهادات المخائل والظن
كأن فراخ الوكن بين جوانحى أقمن وطار الأمهاتُ عن الوكن

ويقول فى مرثية أخرى :

سلام على الأفراح بعدك إنها وإن عشت ليست إربة من مآربى

ومن أعظم ما قيل فى رثاء الأبناء قصيدتا التهامى الرائيتان فى رثاء ابنه وفى واحدة منهما يقول :

عجل الخسوف عليه قبل أوانه ... فمحاه قبل مَظِنَّة الإبدار
واستُلَّ من أترابه ولداته ... كالمقلة استُلّتْ من الأشفار
فكأن قلبى قبره وكأنه ... فى طيِّه سر من الأسرار
أشكو بعادك لى وأنت بموضع ... لولا الردَى لسمعتَ فيه سرارى
والشرق نحو الغرب أقربُ شقةً ... من بُعد تلك الخمسة الأشبار

وفى الأخرى يقول :

أبا الفضل طال الليل أم خاننى صبرى ... فَخُيِّلَ لى أن الكواكب لا تسرى
أُحمِّلُه ثقل التراب وإننى ... لأخشى عليه الثقل من موطىء الذر

ومن أروع وأفخم ما قيل فى الرثاء قصيدة الطغرائى على وزن وقافية وروى القصيدة السابقة ، قالها فى رثاء زوجه وهى فريدة فى بابها ، قال فيها :

وفزت بها ما بين يأس وخيبة ... كما استخرج الغواص لؤلؤة البحر
فجاءت كما شاء المنى واشتهى الهوى ... كمالاً ونبلاً فى عفاف وفى ستر

إلى أن قال :

وقد كان ربعى آهلا بك مدة ... أحن إليه حنة الطير للوكر
وآوى إليه وهو روضة جنة ... بدائعها يَختَلن فى حُلَلٍ خُضر
فمذ بنتِ عنهُ صار أوحشَ من لظًى ... وأضيق من قبر وأجدب من قفر

وقصيدة الأنبارى المشهورة فى عظيم صُلِب من أروع الشعر وفيها يقول :

علوٌّ فى الحياة وفى الممات ... لحقٌّ تلك إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا ... وفود نداك أيام الصِّلات
كأنك قائم فيهم خطيباً ... وكلهمُ قيام للصَّلاة
مددتَ يديك نحوهم احتفاءً ... كمدِّهما إليهم بالهبات

وقدرة الشاعر البيانية وقوته تجعل القارئ ينسى هول ما حل بالمرثى من تحقير وتمثيل وتشنيع . ولعل هذا هو ما أراد الشاعر ، وما يبرر تلك المغالطة البيانية .

وللأندلسيين وشعراء المغرب مَراثٍ جيدة ، فمنها مرثية محمد بن هانى الأندلسى التى يقول فيها :

خرستْ لعمر الله أنفسنا لما تكلم فوقنا القدر

إلى أن يقول :

تفنى النجوم الزهر طالعة والنيِّران الشمس والقمر
وَلَئِن سَرى الفلك المُدار بها فلسوف يُسلِمُها وتنفطر
وإذا انتهيتَ إلى مدى أمل دركا فيومٌ واحدٌ عُمْرُ

ولابن حمديس الصقلى مَراثٍ شجية منها قصيدته التى مطلعها : « يهدم دار الحياة بانيها » فى رثاء جارية غرقت ، وفيها يقول :

يا بحر أغرقت غيرَ مكترث من كنتُ لا للبياع أُغلِيها
جوهرة كان خاطرى صدَفا لها أقيها بـــه وأحميها
عانقها الموت ثم فارقها عن ضَمة فاض روحها فيها

وقال فيها من قصيدة أخرى :

أيا رشاقة غصن البان ما هصرك ويا تألُّفَ نظم الشمل من نثرك
لاصبرَ عنك وكيف الصبر عنك وقد طواك عن عينَى الموج الذى نشرك
كلاًّ وروضة ذاك الحسن ناضرة لا تلحظ العين فيها ذابلا زهرك
أى الثلاثة أبكى فقده بدم عميمَ خلقك أم معناك أم صغرك
من أين يقبح أن أفنى عليك أسًى والحسن فى كل فنٍّ يقتفى أثرك
كنت الشبيبة إذ ولت ولا عوض منها ولو ربح الدنيا الذى خسرك

وابن خفاجة الأندلسى فى مراثيه يجيد وصف وحشة الأسى ، وروعة الموت وجلال مناظر الفناء ، كما يجيد فى قصائد وصف الطبيعة ، وصف محاسنها وملذاتها ، ومن مراثيه قوله يرثى صديقاً عزيزاً :

وكفى اكتئابا أن تعيث يد البِلَى فى محو تلك الصورة الحسناء
فلطالما كنا نريح بظله فنريح منه بسرحة غناء

فَتَقَتْ على حكم البشاشة نَوْرها وتنفست فى أوجه الجلَساء
تتفرَّج الغَمَّاء عنه كأنه قمر يُمَزِّق شملة الظَّلْماء

وقوله من قصيدة أخرى :

كنا اصطحبنا والتشاكل نسبة حتى كأنَّا عاتق ونجاد
ثم افترقنا لا لعودة صحبة حتى كأنَّا شعلة وزناد
يا أيها النائى ولستُ بِمُسْمِعٍ سكن القبور وبيننا أسداد
ما تفعل النفس النفيسة بعد ما تتهاجر الأرواح والأجساد

ومنها فى وصف دولة الموت :

فى موطن نزلته جرهم قبله وتحولت إرَم إليه وعاد
أمم يغصُّ بها الفضاء طوتهم كفُّ الردى طىَّ الرِّداء فبادوا
عفت البُناة على الليالى والبنَى وتلاحَقَ الأمجاد والأوغاد

وله من قصيدة « شراب الأمانى لو علمتَ سراب » :

فيالهمُ من ركب صحب تتابعوا فرادى وهم مُلْدُ الغصون شباب
دعا بهمُ داعى الردى فكأنما تبارت بهم خيل هناك عراب
فها هم وسَلم الدهر حرب كأنما جثا بينهم طعن لهم وضراب
فحتى متى ألقى الرزايا مُمِضَّةً كما كرعت بين الضلوع حراب
فإمَّا كما تعدو الضراغم عنوة وإمَّا كما تمشى الضراء ذئاب

ومن شجّى الرثاء قصيدة الرندى فى رثاء الأندلس بعد استيلاء الأسبان عليها ، وهى القصيدة المشهورة التى مطلعها : « لكل شىء إذا ما تم نقصان » ويقول فيها :

يا غافلاً وله فى الدهر موعظة إن كنتَ فى سِنة فالدهر يقظان
وماشياً مرحا يلهيه موطنه أبَعْد حمص تغر المرءَ أوطان
وراتعين وراء البحر فى دعة لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأٌ عن أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان

يا من لذلة قوم بعد عزهم أحال حالهمُ جور وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً فى منازلهم واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان
يا رب أمٍّ وطفل حيل بينهما كما تُفَرَّقُ أرواح وأبدان

إلخ إلخ . ومن مشهور الرثاء فى شعر المتأخرين قصيدة كمال الدين بن النبيه المصرى التى يقول فيها :

الناس للموت كخيل الطراد والسابق السابق منها الجواد
والموت نَقَّادٌ على كفه جواهر يختار منها الجياد

وهذا من الرثاء الذى تتفق فيه مغالطة العاطفة ومغالطة الصنعة .

* * *

الفكاهة فى شعر العرب [١]

الفكاهة نوعان فكاهة خيالية وفكاهة لفظية والفكاهة الخيالية هى نوع من الخيال ومجالها حيث يتضاءل الجد فيه فهى الخيال فى حال تبسطه ومن أجل ذلك كانت الفكاهة لا تستعمل فى مكان الجد ولكنّ صعباً على من لم يتعود النقد أن يعرف الحد الفاصل بين مكان الجد ومكان الفكاهة فمن الناس من يعد فى الجد ما يعده آخر فى باب الفكاهة ومن الناس من يعد فى الفكاهة ما يعده غيره فى باب الجد ورجحان رأيه بقدر نصيبه من صحة الذوق وسنبين ذلك فى هذا المقال فمن أمثال الفكاهة الخيالية قول ابن الرومى فى رجل أصلع .

يأخذ أعلا الوجه من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله

وليس كل خيال يجرى بالفكاهة لأن الخيال إذا لم يكن وثابا امتنعت عليه سبلها لأنها تخرج من التأليف بين الحقائق المتباعدة والصور المتنائية وتباعد الصور ليس دليلا على تباعد الصلة التى بينها فإن ابن الرومى فى بيته السابق قد ألف بين صورتين متباعدتين وهما أن صلع الرجل جعل وجهه مغيراً على رأسه آخذا منه وأن تزايد نهار الصيف يُجنَى من تناقص ليله ووجه الشبه الذى بين الصورتين قريب متين وإنى لأحسب أن تطير ابن الرومى بينه وبين فكاهته الخيالية سبب لأن التطير يبعثه سوء الظن وسوء الظن يدعو المرء إلى اتهام الناس بمعاداة صاحبه وذلك يبعث على تطلب السبيل الدمث لهجائهم وانتقاصهم . وأوجع الهجاء ما جعل المهجو ضحكة فى أفواه الناس فأكبر ظنى أن سوء رأى ابن الرومى فى الناس هو الذى استقدح الفكاهة فى خياله وهذا بيرون كان مر النفس فاتخذ من مرارة نفسه رائدا إلى الفكاهة اللاذعة انظر كيف يصف وزيراً من وزراء الانجليز حيث يقول فلان ذو الذهن الخصىّ فإن تشبيهه الغباوة بالخصى من الفكاهة الخيالية وهذا المتنبى قد سما بنفسه بين الثريا والسماك ومن كان يرباً بنفسه أن يُعَدَّ فى الناس عرف من أين تؤتى الفكاهة اللاذعة انظر إلى قوله فى رجل أعور :

---

(١) نشر بمجلة البيان ، العدد ٨ ، السنة الأولى ، ربيع الأول سنة ١٣٣٠هـ (فبراير ١٩١٢م) .

فيا ابن كَرَوَّسٍ يا نصف أعمى وإن تفخر فيا نصف البصير

ومرارة النفس تزيد الفكاهة قوة ورسوخا فى النفس غير أنها تلبسها زياً أسود يلائم زيها وتستخدمها فى إنفاذ أمرها وتقريب غرضها أما إذا لم تجد الفكاهة فى النفس ما يرنق صفوها ويمر مذاقها كانت كالنهر حين تدفقه بين الصخور صافى الماء عذبه هذا جوزيف أدسون لطيف الفكاهة شريفها مهما غلا فى نقد العادات والأخلاق ومن أجل ذلك كان خليقاً أن يحمل النفس على الخروج عما يشوبها من غير أن يضيع ثقتها بضميرها ومن غير أن يثير عداء الناس ويحرك بغضهم باللفظ الجارح فقد كانت الفكاهة فى لسان سويفت أو كارليل كالسيف فى يد الجَلْوذ أو السوط فى يد الجلاد .

وأحسن الفكاهة ما صدر عن رغبة فى إصلاح فاسد وتقويم معوج من العادات والأخلاق والعرب تستعمل الفكاهة فى الهجاء والسخر والتعجيز والوصف انظر إلى قول المتنبى فى رجلين قتلا جرذا وأبرزاه ليعجب الناس من كبره .

وأيهما كان من خلفه فإن به عضة فى الذنب

انظر إلى الصورة الخيالية المضحكة التى فى هذا البيت صورة شجار بين رجلين وبين جرذ وانظر كيف ادعى الشاعر أن أحدهما قد عض الجرذ فى ذنبه ولكن المتنبى يمزج الهجاء بالفحش فى كثير من شعره ومن الفكاهة ما كان يستعمله الشاعر فى المديح تغالياً فى إعلاء ممدوحه وتكثيراً لما يستخرجه من المعانى وأكثر هذا النوع سخيف لأنه أقرب إلى الذم منه إلى المدح وإنى ما قرأت قوله :

خفت إن صرت فى يمينك أن تأ خذنى فى هباتك الأقوام

إلا تملكنى الضحك من ذلك المنظر الغريب المودع فى هذا البيت وذكرت ما يشبهه مما يحدث يوم الجمعة عند باب السيدة زينب حيث يتسابق الفقراء والمساكين إلى التمر والكعك والفطير الذى تفرقه النساء صدقة وقد بلغنى أن امرأة وضعت حذاءها فى ناحية فأخذه أحد المساكين حاسباً أنه من هباتها وقد خاف المتنبى إن صار على قرب من ذلك الكريم أن تأخذه الأقوام حاسبة أنه عبد من

هباته ومثل هذا قوله :

وقلبك فى الدنيا ولو دخلت بنا ... وبالجن فيه مادرت كيف ترجع

أليس هذا أقرب إلى السخر والتهكم منه إلى المدح ولكن هكذا الشاعر القدير إذا لم يراقب خياله أتى بالمستهجن ولا يحسب أن المتنبى أراد أن يمزج بمعانى المدح شيئاً من الفكاهة وهو خروج بالمدح عن حده وليس هذا من أدب المدح وإنما دفعه إلى مثل هذا الغلوُّ وحب الابتداع وهما شيئان مقرونان فى قَرَن .

أما شعراء الجاهلية وصدر الإسلام فإنهم وجدوا الفحش وهُجْر الكلام أنكى وأوجع وقد يمزجون به شيأ من الفكاهة هذا سبيلهم فى الهجاء إلا فى القليل النادر وأما شعراء الدولة العباسية فإنهم يستعملون الفحش فى الهجاء أيضاً ولكنهم تفننوا فى استعمال الفكاهة اللاذعة وشعراء الجاهلية وصدر الإسلام يستعملون الفكاهة فى السخر والتعجيز أكثر من استعمالهم إياها فى الهجاء أو الوصف هم يستعملونها كثيراً فى الوصف إذا أريد منه السخر وممن استعمل الفكاهة من الشعراء العباسيين فأجاد أبو نواس ومن بديع شعره فى هذا الباب قوله فى البخيل :

خبز الخصيب معلق بالكوكب ... يحمى بكل مثقف ومشطب

جعل الطعام على بنيه محرما ... قوتا وحلله لمن لم يسغب

انظر إلى قوله (وحلله لمن لم يسغب)

ويعجبنى فى هذا الباب قول حافظ ابراهيم فى الفقير .

ويخال الرغيف فى البعد بدراً ... ويظن اللحوم صيداً حراما

وقال أبو نواس :

رأيت الفضل مكتئباً ... يناغى الخبز والسمكا

فأسبل دمعه لما ... رآنى قادما وبكى

فلما أن حلفت له ... بأنى صائم ضحكا

إذا كان لأهل الفضل والأخلاق الحميدة أن يبيحوا الهجاءَ فلا أكثر من هذا والشاعر خليق أن ينزه منطقه عن مثل ما وقع بين الفرزدق وجرير والأخطل

والبعيث أو مثل ما وقع بين بشار وحمّاد عجرد أو مثل أهاجى ابن الرومى فى بوران أو هجاء المتنبى لابن كيغلغ وماذا يرى الأديب مما تسيغه النفس المهذبة فى هجاء البحترى للمستعين حيث يقول :

وما كانت ثياب الملك تخشى جريرة بائل فيهن خارى

أو قول الأخطل :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم بولى على النار

أو قول المتنبى :

يحمى ابن كيغلغ الطريق وعرسه ما بين رجليها الطريق الأعظم

إلى آخر الهجاء .

وممن استعمل الفكاهة فى الهجاء من غير أن يبيح حرمة الأدب أبو العلاء المعرى حيث يقول :

رويدك أيها العاوى ورائى لتخبرنى متى نطق الجماد

وأبو تمام حيث يقول :

ألصقت قلبك من بغضى على حرق أضر من حرقات الهجر للجسد
أنحفت جسمك حتى لو هممت بأن ألهو بصفعك يوما لم تجدك يدى

ومن بديع ما سمعت من الفكاهة قول أبى نواس وكان قد حبسه الفضل ابن الربيع فى أيام الأمين حتى أشاع أهل خراسان أنه يصطفى ماجناً خليعاً ويقضى معه ليله ونهاره فأقام أبو نواس فى السجن زمناً ثم استتابه الفضل فتاب فعفا عنه فبعث إليه بهذه الأبيات :

أنت يا ابن الربيع ألزمتنى النسـ ـك وعودتنيه والخير عاده
فارعوى باطلى وأقصر حبلى وتبدلت عفة وزهاده
المسابيح فى ذراعى والمصـ ـحف فى لَبّتى مكان القلاده
وإذا شئت أن ترى طرفة تعـ ـجب منها مليحة مستفاده
فادع بى لا عدمت تقويم مثلى وتفطن لموضع السجاده
تر إثراً من الصلاة بوجهى توقن النفس أنه من عباده

لو رآها بعض المرائين يوما لاشتراها يعدها للشهاده
ولقد طال ما شقيت ولكن أدركتنى على يديك السعاده

وهناك نوع من أنواع الفكاهة يسميه الإفرنج الفكاهة اللفظية وشيخ هذه الصناعة (فولتير) ورب الفكاهة الخيالية عندهم هو جان بول رختر الألمانى ، أما شكسبير فنصيبه من النوعين أوفر نصيب والعرب تستعمل الفكاهة اللفظية ولكنهم قد يغالون فيها فتجيء سمجة والفكاهة اللفظية مثل قول المتنبى :

كأن السُمانَى إذا ما رأتك تصيدّها تشتهى أن تصادا

ويعجبنى منه استخدامه هذه الفكاهة اللفظية فى الاعتذار حين عاتبه بعض إخوانه لأنه لم يرد سلامه فقال :

أنا عاتب لتعتبك * متعجب لتعجبك
إذ كنت حين لقيتنى * متوجعاً لتغيبك
فشغلت عن رد السلا * م وكان شغلى عنك بك

فهذا الاعتذار مغالطة ولكنه مغالطة مليحة فهو من الفكاهة اللفظية لأن الصلة التى بين شغله بالتوجع لغياب صديقه وشغله عنه صلة توهم وليست مثل الصلة التى بين أخذ أعلا وجه الأصلع من رأسه وبين أخذ نهار الصيف من ليله فى بيت الرومى فإنك إذا نظرت إلى الصورة المودعة فى هذا البيت أى صورة وجه الأصلع ورأسه ثم رأيت كيف يجنى تزايد يوم الصيف من تناقص ليله علمت كيف تميز الفكاهة الخيالية من الفكاهة اللفظية التى أصلها المغالطة فى مثل اعتذار المتنبى والفكاهة الخيالية يلتذها المرء بخياله والفكاهة اللفظية يلتذها المرء بملكة المنطق لأنها مغالطة منطقية كأن يريد صاحبك أن يبرهن لك مزاحاً باضطراب فى المنطق أن شيئاً خطأ هو رأس الصواب أو أن شيأ صواباً هو رأس الخطأ واعتذار المتنبى هو مثل من أمثال ذلك . أما الفكاهة الخيالية فهى التى تعرض عليك صورة من صور الخيال يبسم لها القلب وتحسب أن البيت الذى يحتويها صورة لا بيت شعر أما الفكاهة اللفظية فهى مغالطة يبسم لها الذهن فإنك إذا قرأت اعتذار المتنبى أعجبتك مهارته ولطف تخيله وهذا شيء مصدره الذهن وكذلك

إذا عرض عليك قوله :

كأن السمانى إذا ما رأتك تصيدها تشتهى أن تصادا

ولكن إذا عرض عليك قول ابن الرومى فى الرجل الأصلع الذى يأخذ وجهه من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله ألاح لك بصورة فكاهية وقد تكون الفكاهة اللفظية أجلب للضحك من الفكاهة الخيالية لأن المغالطة عند العامة هى مصدر ضحكهم .

وليس لنوعى الفكاهة حدود معينة فلا تقدر أن تقول هذا حد الفكاهة الخيالية وهذا حد الفكاهة اللفظية فإنهما قد يمتزجان انظر إلى قول الرومى فى رجل بخيل :

فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

هذا البيت يليح لك بصورة فكاهية صورة رجل من بخله يتنفس من منخر واحد ولكنها مغالطة مليحة لأن البخيل مهما كان بخيلا لا يجد نفعاً له فى أن يتنفس من منخر واحد حتى لو استطاع ذلك ولكن لا مغالطة فى تشبيه تطاول وجه الأصلع على رأسه بتزايد نهار الصيف وتناقص ليله لأنه ليس معنى التشبيه أن المشبه والمشبه به سواء فإذا نظرت إلى قول ابن الرومى فى البخيل وجدت الفكاهة اللفظية ممتزجة بالفكاهة الخيالية وذلك أيضاً كائن فى بيت أبى العلاء :

رويدك أيها العاوى ورائى لتخبرنى متى نطق الجماد

على أن أكثر الفكاهة اللفظية يجىء ممزوجا بشىء من الفكاهة الخيالية وبقدر نصيبه منها يكون نصيبه من روح الشعر وشعراء الجاهلية وصدر الإسلام يستعملون الفكاهة الخيالية أكثر من الفكاهة اللفظية وهذا دليل على صحة أذواقهم ولكن شعراء الدولة العباسية قد أكثروا من استعمال الفكاهة اللفظية لأنهم تفننوا فى أنواع المغالطة المنطقية وقد يجيئون بها مليحة وقد يجيئون بها سمجة .

ولكن أكبر عيوب شعرائنا هو استخدامهم الفكاهة فى موضع الجد وهم لا يعرفون أنها فكاهة وقد ذكرت من أمثال ذلك استخدام المتنبى الفكاهة فى

المديح وهو لا يعرف أنها فكاهة وأقبح من هذا استخدامهم الفكاهة فى الرثاء مثل قول إمام العبد فى قصيدة يرثى بها الشيخ محمدا عبده ما معناه أنه لبس سواد جلده حداداً عليه قبل مماته وإمام العبد لم يرد أن يمزح فيخالف أدب الرثاء ولكنه أتى بالمزح من غير قصد وعمد لأنه تعود قراءة أمثال هذا المزح فى الرثاء والمتنبى إذا استخدم المغالاة فى الرثاء حسبت أنه يمزح مع الميت أو أنه يسخر منه ويهزأ به ومن أمثال المزح فى الرثاء قول شاعر يرثى إماما العبد ويقول له فى رثائه أعرنى سواد جلدك كى ألبسه حداداً عليك هذا أقرب إلى باب السخر والتهكم واستعمال المزح أو السخر فى الرثاء دليل على سقم فى ذوق الشاعر وشعراء الجاهلية وصدر الإسلام كانو أصح أذواقاً من العباسيين لأنهم لم يستخدموا الفكاهة فى موضع الجد من مدح أو رثاء أو حكمة إلا أن يجيئوا بها على سبيل التهكم أو السخر أو التعجيز وهم يريدون ذلك . هذا مذهبهم إلا فى القليل النادر ولكن بدأت الشعراء تستخدم الفكاهة فى مواضع الجد وهم لا يعرفون أنها فكاهة فى أواخر الدولة الأموية ثم فى أيام الدولة العباسية وما زالوا يغالون فى ذلك حتى جاؤا بالغث المستهجن فى باب المديح والرثاء والحكم وشعراء هذا العصر يتابعونهم فى سقم ذوقهم .

فخليق بنا أن نلتمس سلامة الذوق فى شعر شعراء الجاهلية وصدر الإسلام وأن نضع المعنى موضعه كما نلتمس حسن الابتداع ولطف التوليد فى شعر شعراء الدولة العباسية .

* * *